القراريط الخمس

كان ذلك منذ ثلاثين عامًا على وجه التقريب، كانت أمك في المدرسة الإعدادية، الأخت الكبرى لخمس بنات يعولهن أب لا يملك من حطام الدنيا سوى قراريط خمسة يرى أنها تأخذ منه أكثر مما تعطيه، وكان منتهى أمله أن يرى من بناته ما يجعلهن مصدرًا لفخره أمام نفسه وأمام الناس.

تلك القراريط هي مصدر رزقنا الوحيد، غير أن أبي لا يعطيها العناية الكافية، يقول إنها لا تفتح بيتًا، كان راغبًا في السفر إلى الخارج كما يفعل أكثر أهل القرية الذين يفرُّون خارجها بعد أن ضاق بهم العيش داخلها.

فكر أبي في بيع أرضه؛ ليشارك صديقه في مشروع ملأ رأسه بما سيجني من أرباحه، اعترضت أمي التي جعلت القراريط في كفة وحياتها مع أبي في الكفة الأخرى، فتراجع أبي عن فكرة البيع أمام إصرارها.

_ الأرض تطعمنا شهدًا، لو أنك تهتم بها يا سالم..!

_ الشهد لا يطرح في أرضنا يا ثنية.

عادت فكرة السفر تحلّق في رأس أبي، السفر خارج البلاد فكرة لن يقوى أبي على ثمنها، فقرر أن يسافر داخلها، فرصة للعمل في مزرعة رجل ثري في أسوان كانت جديرة بشغل فكره، قد جلبها له العم (عامر)، صديقه الذي يعمل هناك، ظل في حيرة من أمره قرابة أسبوعين هي مدة إجازة صديقه.

جمعنا أبي حوله، حدثنا حديثًا طويلًا، لم نفهم جلّه، غير أن نظراته ولمساته الحانية الرقيقة فوق رؤوسنا، ودموعه التي

جاهد في إخفائها كانت قادرة على الوصول إلى قلوبنا البريئة، ودعناه بدموعنا، بينما خبَّأت أمي دموعها وسط دعواتها لأبي بالسلامة والرزق.

بعد مرور أسبوع، اعتنت فيه أمي بتلك الأرض كإحدى بناتها.. كان الليل قد سرى والفجر كاد أن يطلع، استيقظت أمي على إثر طرقات متتابعة، واستيقظنا جميعًا، عشنا لحظات من الخوف القاتل قبل أن نقترب من الباب، فيأتي صوتٌ من الخارج:

_ افتحي يا ثنيه أنا سالم.

_ سالم!

_ أبي!

انطلقتُ أسبِقُ أمّي نحو الباب، فإذا بأبي خارجه، يحمل حقيبة سفره القصير، يرتجف من البرد، وتبدو عليه آثار الإعياء والتعب، تحلَّقنا حوله، نظرت إليه أمي في تساؤل منعها منه ما رأته من تعب.

في المساء، كنا نجلس على نار المدفأة، فبدأ أبي يقص حكاية رحلته القصيرة التي لم تكتمل:

_وصلنا إلى المكان الذي قصدناه في مدينة أسوان، مزرعة كبيرة صاحبها رجل ثري طاعن في السن، كان الرجل طيبًا ليّنًا، لا يعيش معه في تلك المزرعة الشاسعة سوى ابنه الذي كان على العكس منه تمامًا، مَهمّتي لا تتعدى الاهتمام بأشجار النخيل التي تملأ أرجاء الحديقة الجميلة الشاسعة ففرحت بذلك، لكن كما تقولين دائمًا يا ثنيه «يا فرحة ما تمت....» إذ سرعان ما هبَّت الريح وانقلبت الأحوال.

كنت -يومها- قد انتهيت لتوّي من ريّ أشجار النخيل، (عامر) منهمكٌ في تنظيف المكان، والرجل مشغول مع بعض الأوراق على طاولة كبيرة، وأمامه فنجان القهوة التركي، الذي يعدّه له (عامر) على طريقته، والابن عائد لتوّه من الخارج بسيارته الفارهة، سمعنا -فجأة- أصواتًا متداخلة، صوت سيارة ضخمة كأنما تدكّ الأرض دكًّا، وطلقات نار في الهواء، والحارس يهرول نحو سيده، وقفنا مندهشين لا ندري ماذا يحدث، فإذا بأربعة رجال يدخلون المكان مشهرين أسلحتهم، اتجهوا نحو الرجل المسنّ فقيدوه، فتحركت داخل زوجك نخوة ليس من الذكاء إبدائها في موقف كهذا، فأشار الرجل الضخم بمسدسه في اتجاهي قائلًا:

_ لا تكن مندفعًا، فتخسر حياتك من أجل رجل لا تعرفه!

فانزويتُ في الركن أتابع ما يحدث في دهشة و(عامر) ينظر مندهشًا لا يصدق أن سيده في هذا الموقف، وقد قيد هؤلاء الرجال الرجل المسن وابنه، وأنا أندب حظي السيئ، ولا شيء يشغل فكري سوى أنتِ وبناتي.

بعد ساعات من الأسر، جاء الأمر بإطلاق سراحي و(عامر)، قال أحدهم وهو يرمي بنا خارج المزرعة الكبيرة:

_ من هنا إلى بلدتكم، إن كنتما تريدان الحياة حقًا، فلا تفكرا في هذين الرجلين وعودا من حيث أتيتما.

سرنا في صمت ونحن لا نصدق أننا حقًا نجونا من هؤلاء المجرمين بعد فيلم الرعب هذا، فكرنا في إبلاغ الشرطة إلا أن أقدامنا أَبَتْ إلا أن تقودنا نحو القطار، فررنا بجلدنا ولا نعلم ما هو مصير الرجل وابنه، ولا ماذا جنيا ليستحقا ما حدث، عدت

وأنا لا أفكر إلا فيكن وفي قراريطنا الخمسة التي أهملتها؛ لأرعى غيرها، إلا أنها نادتني، فلن أتركها بعد اليوم..!

_ هل تدرك لماذا قصصت عليك تلك القصة يا بني؟

_ أدرك يا أمي، اطمئني.

_ تلك القراريط التي أصرّت جدتك على الاحتفاظ بها، ورواها جدك بدمه بعد أن عرف قدرها، يريد أهل الشر انتزاعها منا اليوم، أريد أن أرى منك رجلًا لا يقبل التنازل أبدًا، رجلًا لا يفرّط في أرضه وإن فقد حياته..!